

اللغة العربية في مواجهة التحديات

- د . عبدالماجد نديم

Abstract

Arabic language is not restricted to any specific area or nation rather it is the religious language of the whole Muslim world. In the age of globalization, every language is striving for its survival. Arabic too is facing some challenges in this regard. This article sheds light on the challenges faced by Arabic language such as adaptation of Roman script for Arabic, undermining the Arabic grammar and favor of slang instead of standard Arabic. It has been theorized that Arabic language is today, as capable of expression and dissemination of knowledge as it was centuries ago.

نظراً إلى أنّ اللغة العربية ليست - كسائر اللغات - لغة قوم دون قوم أو دولة من الدول أو منطقة من مناطق الأرض، بل هي لغة العالم الإسلاميّ بأجمعه، وهي لغة من قال «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فالدُّبُّ عَنْ حَمَاهَا وَصِيَانَتِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَوَقَايَتِهَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَاجِبٍ عَلَيَّ كُلِّ مَنْ يَتَشَبَّعُ لَهَا، وَلَا سِيَمَا مَنْ يَتَكَسَّبُ بِاسْمِ هَذِهِ اللُّغَةِ الشَّرِيفَةِ، وَإِنْ الْأَحْوَالُ الرَّاهِنَةُ تَسْتَدْعِي التَّحَدُّثَ عَنْ صِلَاحِيَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَّاتِ الْمَعَاصِرَةِ لِأَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ حَقّاً تَوَاجَهَ تَحَدِّيَّاتٍ، وَاتِّهَامَاتٍ النَّقْصِ. فَيَجِبُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ تَشْجِيعُ الْعَامِلِينَ فِي مَجَالِ نَشْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالدِّفَاعِ عَنْهَا - ضِدَّ مَطَاعِنِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْهَاجِمِينَ - وَبَثِّ الثِّقَةِ فِي نَفُوسِ مُتَكَلِّمِي هَذِهِ اللُّغَةِ الشَّرِيفَةِ وَتَعَلُّمِيهَا. يدور مقالنا هذا حول التّحدّيات التي تواجهها اللغة العربية، درسنا فيه واقع اللغة العربية والتّحدّيات التي تواجهها اليوم، ومن ثمّ كفاءتها لغة علميّة حضاريّة لمواجهة هذه التّحدّيات، وصلاحيّتها للتغلب عليها، دراسة لغويّة، وفي الختام عرضنا الحلول للقضاء على مشاكل الواقع المرير.

والهدف وراء هذا الموضوع بعد رضا الله تعالى إحياء ثقة المسلمين والعرب بلغتهم العربيّة؛ أنّها لا تتركهم مشتتّي الأفكار، ولا

تدعهم متخلفين عن مواكبة هذا العصر الذي يسمّى بعصر العلم و التكنولوجيا و المعلومات والعولمة، بل اللغة العربية أهم وسيلة وأداة للتقدم إن استخدموها بجدارة و حنكة.

قبل أن نباشر القول عن صلاحية اللغة العربية لمواجهة التحديات المعاصرة أظنّ من واجبي أن أذكر وظائف لغة ما في أداء دورها الحي في مجتمع من المجتمعات حتى تحصل على مكانتها وأهميتها المرجوة، فمن الجدير بالذكر بهذا الصدد أنّ اللغة - أيا كانت - تلعب دوراً حيوياً في كل مجتمع من مجتمعات العالم.

أولاً: كأداة للتعبير والتواصل بين أفراد المجتمع الواحد؛ من هذه الكينونة تصير اللغة رمزاً للهوية الفردية والمجتمعية، وتصير اللغة ترجماناً ينقل الأفكار إلى الغير من أبناء المجتمع ليتمّ التفاهم والإقناع، أو التأثير، وبها يتمّ توثيق روابط الوحدة الجماعية.

وثانياً: كأداة لحفظ الحضارة والتراث؛ هذا الشيء يجعل اللغة حافظة لذاكرتها مما يضمن التفاعل الحضاري بين الخلف والسلف، وتدوين سجلّ الأمة، وحماية تاريخها.

وثالثاً: كوسيلة لإيصال العلم والمعرفة للأجيال الطالعة؛ لأنّ اللغة تجسّد أنماط الفكر الإنساني، وما ينتج من تطلعات وأفكار رؤى وعلوم ومعارف مع سيرورة الزمان، وهذه الخصيصة تمنح عملية التطوير للأمة

فإذا نظرنا إلى اللغة العربية من هذه الجهة فنجد أنها قد أدت جميع هذه الوظائف بفروعها بأحسن طريق في القرون الماضية، لأنها صلحت لها، ولكنّها تعاني اليوم في الوطن العربيّ ضعفاً وسط أبنائها، وهي تتعرض لأشكال مختلفة من الغزو والتحديات بين الوقت والآخر. وتختلف أشكال هذا الغزو الفكري من بلد إلى بلد آخر، حسب المؤثرات والظروف المختلفة للمجتمع.

ولا يمكننا في هذا المقام أن نتناول جميع أشكال الغزو والتحديات التي تواجهها اللغة العربية في العالم الإسلامي، فيقتصر حديثنا على التحديات التي تتجه إلى كفاءة اللغة العربية الفصحى كلغة، وتتهمها بالعجز عن مواكبة التقدم العلمي وإنتاج المصطلحات العلمية والحضارية التي نشأت في لغات أخرى، وإيصال المعنى للجماهير. وتعيب الخط العربي، والقواعد العربية النحوية والصرفية، أنها حائلة بين رجال العلم و التطور العلمي.

فصعوبة اللغة العربية الفصحى وقواعدها علة يتعلل بها هؤلاء، ففراراً من الفصحى يلجأون إلى لواء اللغة العامية، وبتبرير عدم مواكبة الكلمات العربية وتعبيراتها للمصطلحات الحديثة يلجأون إلى مظلة اللغات الأجنبية، فالتحديات التي تتناول اللغة العربية هي: اللهجات العامية، واللغة الأجنبية، وحركة كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وإلغاء

القواعد الصرفية والنحوية، فهذه التحديات تسعى إلى إقصاء اللغة العربية عن مجالها الحيوي، وعن دورها الثقافي والحضاري. والعامية قد تسَلَّت في كل محافل العرب، والفضائيات تستخدم العامية حتى في نشرات الأخبار، وقد بلغ الأمر إلى هذا الحد أن المعلمين في المدارس يعلمون - حتى قواعد اللغة - بالعامية، والأساتذة في الجامعات يدرسون طلابهم بلغة هي خليطة بين العامية واللغة الأجنبية، وبها هم يناقشون رسائل الماجستير والدكتوراه في اللغة والأدب، فضلاً عن فروع العلم الأخرى، وانتشر اللحن على ألسنة المثقفين، وفي أجهزة الإعلام المختلفة، وكأنه أصبح سمة حضارية لا ينبغي أن يخلو منها حديث مثقف أو إعلامي أو مسؤول. ففي المجالس والمنتديات الكبرى سواء أكانت سياسية أم غير سياسية تُرى للعامية سلطناً مفروضاً لا ينازعها فيه أحد (1).

وإذا نظرنا إلى اللغات الأخرى المتقدمة فنجد أنها أيضاً لا تخلو من العاميات ولكن تلك العاميات لا تتجاوز حدودها ولا تحول عائقاً في سبيل فصاحتها، ففي الإنجليزية هناك اللهجات (الكوكنية) (2)، و(مانكونينية أو مانكية) (3)، و(بتماتكية) (4)، و(ويلزية) (5) وغيرها من اللهجات. وفي فرنسا هناك لغة (الأرغو) للطبقة الفقيرة وهناك (النورماندية) و(الكورس) و(الباسك)، ولكن هناك لغة موحدة لكل من الإنجليز والفرنسيين، ولا يجرو مسؤول أن يتكلم هناك بلغة غير سليمة.

وكانت الحرب العالمية الثانية ملتبهة، وكانت لندن تُقصف من قبل ألمانيا وقف «تشرشل» في مجلس العموم يتحدث فاعترض أحد النواب على عبارة قالها، وقال له المعارض إنها ليست فصيحة، وفي الجلسة التالية أحضر «تشرشل» معه مصادر من المعاجم وقبل افتتاح الجلسة أوضح «تشرشل» أن العبارة التي استخدمها كانت صحيحة، لم يقل للمعارض أن الصواريخ تمطرنا وليس الآن مجال اللغة (6).

وكما ذكرنا أن اللغة العربية تتعرض لأشكال مختلفة من الغزو والتحديات بين الوقت والآخر، فجدير بالذكر أن قضية العامية والحرب على اللغة الفصحى ليست جديدة النشوء، بل بدأت هذه الدعوة الضالة مع بداية عصر الاحتلال الغربي للوطن العربي، وذلك مع مشروع اللورد «فوفرين» الذي أعلن في تقريره وضعه عام 1889م دعوته إلى معارضة اللغة الفصحى وتشجيع اللهجة المصرية العامية، وقال بالحرف الواحد: إن أمل التقدم ضعيف في مصر طالما أن العامة تتكلم اللغة الفصحى العربية... (7)!

ثم كانت الدعوة التي أطلقها المهندس البريطاني «وليام ويلكوكس» بعد أن تم تعيينه رئيساً لتحرير مجلة «الأزهر»، حيث دعا الباحثين إلى كتابة بحوثهم باللهجة العامية التي يعرفها الجميع، أما الفصحى فلا يعرفها إلا المختصون، وأعلن عن مسابقة جازتها أربعة

جنيهاً إنجليزية لمن يترجم سورة من القرآن الكريم بالعامية المصرية، ثم جعل من نفسه قدوة بأن ترجم جزءاً من الإنجيل إلى العامية (8). وهكذا سار على طريقه الآخرون، وخذت حدوهم مجلة المقتطف عندما كانت تصدر في بيروت، وأسهمت معهم، بشيء من الاعتدال، مجلة الهلال.

وفي نفس الوقت قدّمت خطة الكتابة بالحروف اللاتينية، وكان أول من نادى بها «سيتايك» الألماني الأصل الذي كان يعمل مديراً لدار الكتب المصرية عام 1880م. ثم «ويلمود» الذي كان مستشاراً بمحكمة الاستئناف الأهلية، وبعده «اسكندر معلوف» المسيحي السوري، ثم «سعيد عقل» الشاعر اللبناني الذي بدأ بنفسه في كتابة بعض مؤلفاته بهذه الحروف وإنشاء مطبعة لها، ثم كان «عبدالعزیز فهمي» من أبرز الدعاة لهذه الخطة ولكن هذه المشروع قوبل بالسخط والنكير من جمع حماة اللغة العربية (9).

والحق أنّ الحروف العربية تتميز بخصائص عديدة، قد بلغت من الكمال والجمال، ما لم تبلّغه حروف لغة من اللغات، ومن ميزات وضوح مخارج الأصوات وعدوية النطق بها، وقد اهتم بها اللغويون العرب، مثلاً نجد في اللغة العربية أصواتاً كالحاء والعين والغين والقاف والضاد والظاء والذال والثاء لا يوجد مثلها فيما يسمّى باللغات الحيّة هذه الأيام، ولا سيما اللاتينية الأصل، في حين تفتقد العربية ثلاثة أحرف من اللاتينية وهي v p g وقد تم تمثيلها بوضع ثلاث نقط للحروف ف ب ج لتدلّ عليها (10).

الحروف العربية واضحة ودقيقة في أداء أصواتها الأصولية، وأمّا الحروف اللاتينية تنقصها هذه الدقة، ولتبيين هذا الغموض والنقص في الحروف اللاتينية الكتابية نأتي بأمثال من الأصوات في اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية الأخرى، والحروف اللاتينية المستخدمة لتسجيل تلك الأصوات لا تستطيع أن تسجلها بالدقة بل تتخبط خبط عشواء، على سبيل المثال لا الحصر؛ لاحظ صوت الشين في اللغة الإنجليزية، لا تتمكن من أن تسجل هذا الصوت بحرف هجائي واحد، أو بطريقة واحدة؛ مثلاً في: Special, Sugar, Shall, Discussion, Dictation، في هذه الكلمات المذكورة نلاحظ أنه ليس هنالك قاعدة معينة في الإنجليزية لتسجيل صوت /ش/، بل استخدمت لتسجيل هذا الصوت أحياناً "cia" كما في "Special" وفي بعض الأحيان "Su" كما في "Sugar" و استخدم حرفاً "Sh" كما في "Shall" ومن ثم "ssio" كما في "Discussion" و "tio" مثل في "Dictation"، هذا هو الخبط الملحوظ، وإنه من الواجب للحروف الهجائية أن تكون دقيقة في تسجيل الأصوات النطقية، أمينة في أدائها لا خانة. الحروف اللاتينية تنقصها هذه الدقة في أداء أصوات لغاتها فكيف يمكن أن تؤدي حق اللغة العربية في أصواتها الخاصة.

وهكذا لاحظ صوت /ف/ في Fish و في Rough و لاحظ صوت /و/ في الكلمات التالية: World, Women, honor, over إنه مرةً يُلفظ كالفتحة، ومرةً كالكسرة، ومرةً كالواو الممدودة، ومرةً كالفتحة المائلة للكسرة، فيا للعجب! ويا للعجب ممن يطالب بتغيير الواو العربية التي لها نطقان فقط: إما ساكنة أو ضمة طويلة (11).

إن دعاة العامية والكتابة بالحروف اللاتينية يرون الأمر مجرد إصلاح لغوي للتيسير، ولتخفيف العبء عن المتحدثين والكتابيين، حتى ننطلق إلى أفاق التقدم. ولكن الحق أن هذه الدعوات ومثلها إذا نجحت وبلغت مرمى دعائها لتهدم تراث الأمة الإسلامية تحت دعوى الإصلاح اللغوي كما نرى في تركيا الآن: مكتبات حافلة بأمهات التراث العربي والإسلامي على هيئة متاحف لا تصل إليها إلا بشق الأنفس، بينما الشارع الرسمي يحارب اللسان العربي والإسلام (12).

واليه يشير مصطفى صادق الرافعي، قائلًا: «لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وأماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر، حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم نشأ منهم ناشئ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغةٍ ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء» (13).

وقال سعيد حوي: «وتصور أن الدعاة إلى اعتماد اللغة العامية المحلية لكل قطر قد أفلحوا في دعوتهم، فماذا يكون؟ أول شيء يكون هو أن تموت اللغة العربية الفصحى، ثم تنشأ لغات محلية وليدة تبلغ المنات!! كما حدث بالنسبة للغة السنسكريتية واللغة اللاتينية، وينتج عن ذلك ألا يفهم العرب بعضهم بعضاً، ثم ألا يفهم الناس ما كُتب بالفصحى قديماً كما يحدث الآن في بريطانيا وفرنسا وغيرهما، حيث يفهم الرجل المعاصر نصوص لغته قبل منتي سنة أو أقل أو أكثر، وبذلك تضرب الثقافة العربية الإسلامية ضربة واحدة» (14).

وهذه هي الحقيقة أن مثل هذه الدعوات لا تهدف إلا إلى عزل الأمة عن تراثها، وتفرق العرب وتمزقها، ويشير إلى هذه الحقيقة الدكتور علي عبدالحليم محمود في قوله: «ما تلك العامية التي يروجون لها؟ أي عامية يعنون؟ عاميات مصر العديدة، أم عاميات الجزيرة العربية المتعددة؟ أم .. أم.. إن هذه العاميات وتلك اللهجات التي لا تكاد تحصى في هذه المنطقة العربية تستعصي على فهم كثيرين من العرب أنفسهم، وبهذا لن تبلغ من نفوس العقلاء مبلغ الرضى بحال» (15).

وبسبب الانفتاح والتشرب للمؤثرات الأجنبية لجأ العرب إلى اللغات الأجنبية المختلفة محل اللغة العربية، والمشكلة ليست حصراً على المصطلحات الأجنبية للمخترعات الحديثة، بل نجد كثرة هائلة من الكلمات

العجمية الأخرى عن المخترعات والمكتشفات الحديثة على أسنة ناطقين باللغة العربية، ونرى الأسماء الأجنبية على واجهات المحلات والشركات أو المؤسسات، وإنها في أسواق المدن العربية ترفع على لافتاتها التسميات الأجنبية.

وإن الغالبية العظمى من الجامعات العربية تعتمد اللغة الأجنبية والإنجليزية في التدريس، وقد بلغ الأمر إلى هذا الحد أن الدكتوراه مها خير بك ناصر تقول: "لقد ترسخ الشعور عند معظم أبنائنا، بعجز اللغة العربية عن مواكبة حركة العلم والتكنولوجيا، وتأكدت أمامهم عظمة اللغات الأجنبية التي تحتضن الفكر العلمي المعاصر وتنقله، فنتج عن ذلك الشعور بالدونية أمام اللغات الأخرى، وصار النطق باللغات الأجنبية دليل تفوق فكري وحضاري، ولو كان النطق لا يتجاوز حدود الشكل الصوتي" (16).

وتبين الدكتوراه مها واقع اللغة العربية وتوضح فساد ذلك الواقع ومعابيه مع الأسباب، قائلة: "تعيش اللغة العربية، اليوم، حالة تغريب عن أبنائها، فهي في نظر البعض لغة عاجزة عن مواكبة الحضارة العلمية المعاصرة، لأنها، في رأيهم، تفتقر إلى الخصوبة العلمية، وغير قادرة على اكتساب المصطلحات، والمفاهيم العلمية والحضارية الجديدة، فشهدت مؤسساتنا التربوية سباقات مفرغة من الهدف، وسارعت إلى تبني برامج تعليمية غريبة عن موروثنا الثقافي، وغير قابلة للتفاعل معه لسبب رئيسي يكمن في عجز القيمين على البرامج عن إيجاد المناخ العلمي القادر على خلق مختبرات الانصهار والإنتاج، وفرضت على أبنائنا أشكالاً علمية مسبقة الصنع، يتعرفون إليها جاهزة، مع الاكتفاء بالشكل الخارجي الذي يجهلون تكوين مادته، فربطوا جهلهم بمعرفة الجواهر بعجز اللغة عن تبليغ الرسالة العلمية بعمق ووضوح، ورميت لغتنا بالنعوت السلبية" (17).

وفي المقابل نرى الأمم الأخرى تقف أمام من يدخل كلمة واحدة في لغة بلاده، في عهد ديغول تسرب للتلفاز الفرنسي كلمة (ويك إند) فقامت الدنيا وقعدت لأنهم استعملوا كلمة إنجليزية بدل الفرنسية، وفي فرنسا يوجد مجلس للغة الفرنسية يرأسه رئيس الجمهورية وأعضاؤه رؤساء الدول الناطقة بالفرنسية، وفي كل عام يقدم لهذا المجلس تقرير عن وضع اللغة الفرنسية في العالم.

وفي مايو 1994م. أصدرت فرنسا تشريعاً يحرم على الفرنسيين استخدام لغة غير الفرنسية في الوثائق والمستندات ووسائل الإعلام والمحلات التجارية، وهذا التشريع يقضي بمعاينة من يخالف هذا بغرامة مالية (18).

وفي ألمانيا - في عهد النازيين - أصر الألمان على أن يضعوا كلمات ألمانية موضع بعض الكلمات اللاتينية اليونانية التي كانت مستعملة، وقد أكد ((فيختة)) كاتب ألمانيا المعروف: «أن اللغة الألمانية

قادرة على رفع معنويات الأمة وإعادة وحدتها وتوطيد أركانها بعد أن كانت جيوش نابليون قد جعلت من ألمانيا ما يقرب من ثلاثين دويلة (19).

والنرويجيون حينما تمسكوا بلغتهم في مواجهة الاحتلال الدانمركي والسويدي لبلادهم ورفضوا رفضاً قاطعاً لغة هؤلاء الأعداء - على الرغم من التقارب الشديد بين تلك اللغات - عندئذ عاشوا أحراراً مستقلين لا ينطقون لغة العدو التي تذكرهم بالذل والهوان (20).

عاشت بلاد الاتحاد السوفيتي السابق حصاراً لغوياً، وصارت اللغة الروسية لغة العلم والفكر والحضارة، ولكن شعوب هذه البلاد ظلت مرتبطة ارتباطاً وجدانياً ومصيرياً بلغتها، فرسخت، بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، هويتها القومية باعتماد اللغة الأم لغة رسمية في المؤسسات التربوية لأنها لغة التفكير والتوثيق الحضاري والثقافي.

ومن هنا يجب علينا أن نوجه السؤال إلى أنفسنا وعلى الذين يرمون اللغة العربية بالعجز ويسمونها بلغة ميتة، ويقولون إنه لا طائل تحت استخدام هذه اللغة، لأن الميت لا يعود إلى الحياة، ماذا رأيهم: "هل تغيرت اللغة العربية من حيث الفاعلية التواصلية؟ ولماذا استطاعت هذه اللغة أن تحتضن ثقافات متنوعة ومتعددة، وتحتزنها وتخمرها ومن ثم تبعثها بلسان عربي مبين ناطق بمعرفة لا تعرف الفناء؟" (21)

وهكذا حافظ إبراهيم - شاعر النيل - وجه السؤال نفسه إلى الأمة العربية - بالتقريب في سنة 1903م - في قصيدة بعنوان: "اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها"، فيقول على لسانها:

وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَعَايَةً
فَكَيْفَ أَضْيَقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ
لِمَخْتَرَعَاتِ

أنا البحرُ في أحشائه الدر كامنٌ
صدفاتي

أَيَهْجُرُنِي قَوْمِي - عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ -
سَرَّتْ لَوْثَةُ الْأَفْرَنْجِ فِيهَا سَرِّي
فَجَاءَتْ كُتُوبٌ ضَمَّ سَبْعِينَ رَفْعَةً
وقال:

أرَى لِرِجَالِ الْغَرْبِ عِزًّا وَمَنْعَةً
وكم عِزٌّ أَقْوَامٍ بَعْزٌ
لُغَاتِ (22)

”واللغة العبرية وهي من أخوات العربية في الأصل السامي، تلتقي مع العربية في كثير من الصفات، ولكن أهلها بعد أن ماتت وعفا عليها الزمن، وبعد عشرات القرون، قاموا بلمّ شعئها، وإحياء رميمها، ثم نراهم اليوم يتمسكون بها ويتعلمونها ويعلمون بها، تاركين لغاتهم الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها مما نشأوا عليه ولم يعرفوا غيره، ذلك رغم صعوبة العبرية ووعورة شكلها، حيث الأنواع الكثيرة من الفتحات والضمت والكسرات والنقط التي توضع على الحروف أو بقربها أو تحتها أو بين يديها.. أو ليست العربية أولى أن تُصان؟“ (23).

وذلك لأنّ الشعب اليهودي لحريص على إتقان اللغة العبرية وإحيائها كلغة علم وأدب وفكر وفلسفة، ويعمل المثقفون منهم على إغنائها بالمفردات.

والحق أن المشكلة في الإنسان العربيّ الذي يعيش مرحلة انسحاق وانبهار وشعور بالدونية من انتمائه، فيمارس دونيته هروباً من أصلته وهويته، والهوية القومية ترتبط باللغة القومية، وليست المشكلة في قدرة اللغة العربية التي حملت في طياتها الثقافات والحضارات العالمية من ستة عشر قرناً على وجه التقريب، وقد مرت على حياتها وهي تؤدي واجبها كلغة حية من مدة ماتت الأخرى من زميلاتها وسقطت دون تحقيق متطلبات مجتمعاتها وأبنائها، وأما اللغة العربية فهي لغة حية تتمتع بخصائص تقدر على أن تواجه وتغلب على التحديات العلمية والحضارية المعاصرة، والمستقبلية أياً كانت، لأنها لغة القرآن الكريم، والقرآن الكريم دستور الإنسانية للأبد، وكيف يمكن ذلك بموت لغته، وفناء وعانه؟

وقد دفع الإنسان العربيّ إلى هذا الانسحاق واقع ذلك المجتمع الذي يعيش فيه، لأنه قضى فترة من الزمان تحت سيطرة الاستعمار التي أسرت عقله وتسلمت على ذهنه، حتى أبهرته ببريقاتها وإغراءاتها، فصار الإنسان العربيّ مبهوراً لا يرى إلا تلك النيران التي أشعلت له القوّات الاستعمارية، فعندما يأتي صوت داع إلى الأصالة، محذراً عن تلك النيران فهو يتحير ولا يثق به. وإلى نفس الحالة تشير الدكتورّة مها بقولها: ”إنّ الواقع العربيّ المشحون بالصراعات النفسية، والقلق والضياح يعاني التشردم والتفكك والضياح وفقدان المركزية، ويعيش إنسانه مرحلة صعبة ومعقدة، وهو يستقبل حضارة عالمية تتميز بالدقة العلمية والاختصاص المفعّل بالشمولية، وينقلها الإعلام العالمي الاستهلاكي بكل إغراءاته، فيكتفي الفرد العربي بالجهاز المعد له مسبقاً، وتتحوّل مجتمعاتنا بسرعة غريبة إلى مجتمعات استهلاكية، ويتناسى الفرد أصلته، ويهمل قدراته، فيتمثل عجزه ببعده عن لغته، وعدم الوثوق بها، وبفاعليتها وطاقتها الأدائية“ (24).

وإن الخصائص التي تتميز بها اللغة العربية، حتى لا تشاركها فيها لغة أخرى، فأولها: وفرة كلماتها وكثرة ألفاظها التي تملأ أجزاء عديدة من أي معجم شامل لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، يبلغ عدد جذور لسان العرب 9.273 جذراً مما يتيح توليد الآلاف من المصطلحات، ومن الجدير بالذكر أن اللغات الهندية وأوروبية لا تملك سوى 500 جذر (25).

ثم إن اللغة العربية لغة اشتقاقية طيبة تولد من الكلمة الواحدة الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول واسم المكان، واسم الزمان، واسم المرة، واسم الهيئة، واسم الآلة، والصفة المشبهة، وصيغ التفضيل، وأنواع المصادر المختلفة، وغير ذلك مما تعجز عنه اللغات الأخرى، وكل ذلك وفق قواعد قياسية مطردة، وذلك بالإضافة إلى إمكان قلب حروف اللفظة الواحدة مع بقاء المعنى العام لكل قلبياتها، كما يوضحه اللغوي العبقري أبو الفتح ابن جني في كتابه (خصائص اللغة العربية) مثل كمل وكلم وكلم وملك التي تحمل جميعها معنى القوة. ومن مظاهر الحيوية الدافقة في اللغة العربية كفاءتها في تطور دلالة الألفاظ والعبارات عبر العصور المختلفة مع صيانتها على أصلها الأول، ومن أمثلة الألفاظ التي تطورت مدلولاتها لفظاً (فنان) إذ كانت تعني الحمار الوحشي لما له من فنون العدو، كما يشير إليه بيت الأعرابي (26):

وإن يك تفریب من الشدّ غالها بمیعة فنان الأجاربي (27)،

مُجذِم

وأصبحت تعني المرء المبدع في تمثيل الجمال كالموسيقى، والتصوير والشعر، والنحت، وفن البناء والرقص (28). وكذلك كلمة (عصابة) التي كانت تعني الجماعة من الأصحاب والخلان والكواعب الحسان، قال حسان بن ثابت (29):
لله در عصابة نادمهم يوماً بجلق (30) في الزمان

الأول

وهو يعني بالعصابة في هذا البيت جماعة جلس معهم في حضرة ملك غسان في دمشق في مجلسه الوثير، فعل مثل جماعة الملك الغساني في مجلسه الوثير هذا أطلقت (العصابة) في القديم، أما اليوم فإنها تطلق في الغالب على جماعة اللصوص والمجرمين. وهناك كلمات أخرى شهدت مثل هذه التطورات، مثل: جرثومة، وصعلوق، وعلق، وهاتف، وسيارة، فلما لاحظت مثل هذه الكلمات وتطور مدلولاتها حسب العصور، يمكن استخدام المعاجم العربية التي جمعت وألفت في عصور مختلفة.

نظراً إلى هذه الكلمات يعتقد بعض اللغويين أن الترادف والمشارك اللفظي والتضاد، إنما نشأ كل ذلك بسبب التطور الدلالي للألفاظ (31).

وإن الشيء الذي يوضح نزوح اللغة العربية هو نظام الإعراب: هو من أهم النظم اللغوية التي تميز العربية من غيرها من اللغات، فقد

أعطى هذا النظام الدقيق مرونة خارقة للمتكلمين بالعربية تجعلهم غير ملزمين بترتيب عقيم للكلمات يدل على الوظائف النحوية لها. بينما تُلزم الكثيرات من اللغات متكلميها بترتيب معين لكلمات يميز الوظائف النحوية فيها، يضيع هذا التمييز إذا اختل هذا الترتيب، فالإنجليزية مثلاً تتبع ترتيب: فاعل - فعل - مفعول، فإذا أردت أن تقول: (شرب حامد الماء) في الإنجليزية، يجب أن يكون الترتيب: (حامد شرب الماء) (Hamid drank water). ولا يجوز أن تقول: (شرب حامد الماء) (Drank Hamid water). ولا: (الماء شرب حامد) (Water drank Hamid)، ولا: (شرب الماء حامد) (Drank water Hamid).. بينما يجوز لك أن تقول كل ذلك بالعربية، وذلك لوجود علامات الإعراب التي تلحق بأواخر الكلمات وتميز الفعل و الفاعل و المفعول. ونظام الإعراب هذا يدل على المرونة التي تتميز بها اللغة العربية من غيرها من اللغات (32).

”لهذا كله نرى أن الإعراب، كان من الأمور التي تساعد على حرية بناء الجملة العربية، وأن الجملة العربية، لهذا السبب، كانت تقال بأوجه عدة. وهذا هو ما كان الزجاجي يقصد إليه في النص الذي اقتبسناه من كتابه ((الإيضاح)) قبل ذلك، - وهو قوله: ...وكذلك سائر المعاني، جعلوا هذه الحركات دلالة عليها، ليتسعوا في كلامهم، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعاني - فلما فقد الإعراب، كان الواجب أن يلزم بناء الجملة نظاماً واحداً، وهو ما حدث في اللهجات العربية الحديثة؛ ... بتقديم الفاعل، والتثنية بالفعل، ثم الإتيان بالمفعول به“ (33) أي مثل اللغة الإنجليزية.

وتمتاز اللغة العربية بكثرة مجازاتها، مما تُعجُّ به كتب البلاغة من أفانين المعاني والبيان والبديع، حتى سماها البعض بلغة المجاز، أو كما سماها عباس محمود العقاد باللغة الشاعرة (34).

وتكاد لا توجد لغة في المعمورة تشارك اللغة العربية في كثرة أساليبها، وتنوع طرائق التعبير فيها، وفي حيويتها وطواعيتها وتقبلها للتطور الدلالي (35).

وإن اللغة العربية اليوم أيضاً لقادرة على مواكبة أطراد الحضارة في عصر السرعة والفضاء والانترنت، ولكن الوصول إلى هذا الهدف ليس بسهل إلى هذا الحد لأن العصر الذهبي ترجم علوم أقوام ماضية، وأما اليوم فنحتاج إلى ترجمة علوم قوم يسرعون في تقدمهم في العلوم، ويأتون بجديد كل يوم، فالقيام بمثل هذه المقاومة يتطلب من المسلمين قبل كل شيء تعزيز الهوية الإسلامية، والاعتزاز بالانتماء إلى تراثنا الإسلامي العربي الغني، والعودة إلى الثقة بأنفسنا وبلغتنا التي هي عقليتنا وفكرنا، وشخصيتنا، والتي تحقق وحدة الأمة الإسلامية، وتعبّر عن أحوالنا وأسرارنا ودقائقنا، كما يعبر عن هذا، المفكر الألماني ((فخته)) بقوله: ”إن اللغة هي الرابطة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم

الأذهان“ (36). تحتاج اللغة العربية لبقائها رابطة حقيقية بين عالم الأجسام و عالم الأذهان إلى حلول تالية:

- إنشاء مؤسسات تعني بالتراث الإسلامي العلمي، وتخلق المعجم العلمي العربي، وقد أحسّ بهذه الضرورة نفسها الدكتور رشدي راشد إذ قال: ”وإذا أردنا إحياء اللغة العربية كلغة علمية، لا بد من أن تستند إلى هذا التراث [التراث العربي العلمي]، كي لا تكون عملية إنهاض واستعادة هذه اللغة العلمية مجرد عمليات ارتفاقية دون دراسة لتاريخ هذه اللغة ومكوناتها. وعليه لا بد من خلق القاموس العلمي العربي“ (37).

- وكذلك إنشاء معاهد - علمية عربية - تعني بترجمة الكتب العلمية إلى اللغة العربية السليمة السلسة، ليستقبلها الإنسان العربي بلغة تفكيره وإبداعه، حتى يتمكن من إعادة خلقها من جديد بلغة عربية، فتبعث جذتها وابتكارها، في نفس الآخر، رغبة في نقلها إلى لغته، هكذا تستمر اللغة العربية في عملية الأخذ والعطاء إلى ما لا نهاية.

- قيام المجامع العلمية بوضع المصطلحات العلمية ونشرها بسرعة، وتقوم بمحاولة البحث عن لفظ عربي بديل قبل شيوع ذلك اللفظ العلمي الأجنبي على كل لسان عربي، ولتكن هذه العملية متواصلة كي تساير حركة الحياة الحضارية، ها هي أهم وسيلة للدفاع عن هجمات الكلمات الأجنبية على اللغة الأجنبية، كما يقول الدكتور رمضان عبدالنواب في قضية مشكلة تعريب ألفاظ العلم ومستحدثات الحضارة: ”وفي رأيي أنه لو صاحب دخول المخترع الأجنبي إلى البلاد العربية، وضع لفظ عربي له، وعناية وسائل الإعلام والصحافة بالدعاية له، لقضى على الكثير من مظاهر هذه المشكلة من أساسها“ (38). ثم يسوق لتأييد قوله مثال اللغة الألمانية، ويقول: ”وإنك لتعجب حين ترى الألمان يقومون بمثل ما ننادي به هنا، ومعظم المخترعات لها عندهم أسماء ألمانية خاصة، فالتليفون مثلا هو عندهم: Fernsprecher والتليفزيون: Fernsehen وغير ذلك. وفي قدرتنا النسج على هذا المنوال، للحفاظ على عروبة لغتنا“ (39).

- تعريب التعليم في جميع المراحل من الروضة إلى التعليم الجامعي.
- والاعتناء بالدراسات اللغوية، والبحوث في مجالات التعريب والاشتقاق والمعاجم و جميع الموضوعات اللغوية.
- والعناية بنشر اللغة العربية خارج البلدان العربية.
- واتصال مباشر بين المجامع العلمية فيما بينها والجامعات، ووسائل الإعلام والصحافة.
- وعقد المؤتمرات العلمية والإكثار منها، والالتزام بمقرراتها.
- وإصدار القواميس العلمية.

الهوامش

- (1) ينظر: مقال الدكتور السيد رزق الطويل. مجلة الفصيل، العدد: 254، 1997م.
- (2) Cockney لغة الطبقة العاملة في لندن ولا سيما في نهاية الشرق.
- (3) Mancunian or Manc لغة سكان مانشستر
- (4) Pitmatic، اللهجة الإنجليزية المستخدمة في نوثمبر لاند و دورهام في إنكلترا
- (5) Welsh اللهجات الإنجليزية يتحدث بها سكان ويلز
- (6) ينظر: حديث الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة. مجلة الضاد، العدد 17، ذوالقعدة - محرم 1426هـ.
- (7) مقال الأستاذ أنور الجندي. مجلة لواء الإسلام، سنة 1994م.
- (8) المرجع نفسه، ومقال الدكتور السيد رزق الطويل. مجلة الفصيل، العدد 254، ديسمبر 1997م.
- (9) مقال الدكتور أحمد عبدالدايم. مجلة المنهل، العدد 441.
- (10) ينظر: مقال الدكتور سميح أبي مغلي. مجلة الضاد، العدد 17، ذوالقعدة - محرم 1426هـ.
- (11) ينظر: المرجع نفسه وهكذا يمكن مراجعة إلى: Linguistics – An Introduction – Jean Aitcheson: p37
- (12) ينظر: مقال الدكتور السيد رزق الطويل. مجلة الفصيل، العدد 254، ديسمبر 1997م.
- (13) ينظر: وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي. دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. ج 3، ص 33.
- (14) جند الله ثقافة وأخلاقاً: سعيد حوى - مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الرابعة: 1412هـ/1992م. ص 167
- (15) مقال الدكتور عبدالناصر حسين محمد. المجلة العربية، العدد 244، جمادى الأولى 1418هـ، نقلاً عن: الغزو الفكري: د. علي عبدالحليم محمود.
- (16) مقال الدكتورة مها خير بك ناصر. مجلة "العربي"، العدد 554، يناير 2005 - ذوالقعدة 1425هـ.
- (17) المرجع نفسه
- (18) مقال الدكتور عبدالناصر حسين محمد، المجلة العربية: جمادى الأولى 1418هـ. العدد 244. نقلاً عن: مجلة الوعي الإسلامي، العدد 366.

- (19) مقال الدكتور عبدالناصر حسين محمد. المجلة العربية، جمادى الأولى 1418هـ. العدد 244. نقلاً عن: الغزو الفكري : د. علي عبدالحليم محمود.
- (20) المرجع نفسه.
- (21) مقال الدكتورة مها خير بك ناصر. العربي، العدد 554، يناير 2005م - ذوالقعدة 1425هـ.
- (22) ديوان حافظ إبراهيم، دار صادر، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: 1409هـ. ج1، ص210، 211.
- (23) ينظر: مقال الدكتور سميح أبي مُغلي. مجلة الضاد، العدد17، ذو القعدة - محرم 1426هـ.
- (24) مقال الدكتورة مها خير بك ناصر. العربي، العدد 554، يناير 2005م - ذوالقعدة 1425هـ.
- (25) ينظر: مقال الدكتور نجيب غزاوي. مجلة الفيصل، العدد، 251، سبتمبر 1997م.
- (26) ينظر: لسان العرب، ابن منظور. دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: 1995م. - 1416هـ: ج10، ص337، (مادة: فن).
- (27) أجاري: ضروب من جريه.
- (28) ينظر: المنجد، لويس معلوف. المطبعة الكاثوليكية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى (في نصه الجديد): 1960م.: ص596 (مادة: فن)
- (29) ديوان حسان بن ثابت، بشرح الأستاذ عبدأ. مهنا. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: 1986م. - 1406هـ: ص184. من قصيدة أولها:
 أسألت رَسَمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ * بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبُضَيْعِ فَحَوْمَلِ
- (30) جلق: دمشق.
- (31) لمثل هذه البحوث يمكن الاستفادة من الكتب التي ألفت حديثاً حول فقه اللغة، مثل: فقه اللغة لعلي عبدالواحد الوافي، وفصول في فقه العربية للدكتورمضان عبدالتواب، ودراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي صالح، وغيرها.
- (32) مثل هذا المثال ضرب الأستاذ عبدالله مجدي (أكل زيد طعاماً) ولم يأت بمترادفه الإنجليزي، ونقله: محمد نعمان الدين ندوي في مقاله. ينظر: مجلة الفيصل، العدد 255، يناير 1998م.
- (33) فصول في فقه العربية: د. رمضان عبدالتواب. مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر. الطبعة الثانية: بدون تاريخ. ص395.
- (34) ينظر: مقال الدكتور سميح أبي مُغلي. مجلة الضاد، العدد17، ذوالقعدة - محرم 1426هـ.
- (35) ينظر: المرجع نفسه.

- (36) ينظر: مقال محمد نعمان الدين ندوي. مجلة الفيصل، العدد 255، يناير 1998م.
- (37) وذلك في حوار أجراه معه هوارى زهير: لـ جريدة السفير، المؤرخة: 2000/02/18، (من أرشيف الجريدة بوساطة انترنت)
- وأما الدكتور رشدي راشد فهو من مواليد القاهرة في العام 1936 ومقيم في فرنسا، درس الفلسفة في ألمانيا والرياضيات في فرنسا، مدير لمركز تاريخ العلوم والفلسفات العربية وعلوم العصر الوسط التابع للمركز الوطني للبحث العلمي فرنسا وجامعة باريس 7، ومدير لقسم الدكتوراه في الجامعة الأخيرة، ومدير تحرير المجلة المتخصصة في البحث في تاريخ العلوم: Arabic Sciences and Philosophy Cambridge University Press، وأستاذ في جامعة طوكيو ورئيس للجمعية العالمية لتاريخ العلوم والفلسفات العربية والاسلامية ونائب لرئيس المجمع الدولي لتاريخ العلوم.
- وهو حائز على جوائز وتنويهات عدة منها: ميدالية الكسندر كويريه من الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم، كرمته الحكومة البريطانية على آخر مؤلف صدر له عن تاريخ الرياضيات الصادر في إنكلترا عام 1998، وغيرها من الجوائز والميداليات.
- وله مؤلفات، وهي: تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب، وعلم الهندسة والمناظر في القرن الرابع الهجري، ابن سهل القوي، ابن الهيثم، الجبر والهندسة في القرن الثاني عشر، الأعمال الرياضية لشرف الدين الطوسي، تاريخ وفلسفة الجبر، نظرية الأرقام (الأعداد) الكلاسيكية، النظرية الهندسية والنظرية الطبيعية (المادية)، الإنشاءات الهندسية Determination infinitesimals، مشكلات تاريخية وفلسفية في تطبيق الرياضيات في العلوم الاجتماعية. (جميع هذه المعلومات من المصدر نفسه)
- (38) فصول في فقه العربية: د. رمضان عبدالنواب. مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر. الطبعة الثانية: بدون تاريخ. ص 368.
- (39) المرجع نفسه.

المصادر والمراجع

1. أروع ما كتب شاعر النيل حافظ إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب - 1995م.
2. جند الله ثقافة وأخلاقاً: سعيد حوى، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الرابعة: 1412هـ/1992م.
3. دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي صالح

4. ديوان حافظ إبراهيم، دار صادر، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: 1409هـ.
5. ديوان حسان بن ثابت: شرح الأستاذ عبدأ. مهتأ. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: 1986م - 1406هـ.
6. فصول في فقه العربية: د. رمضان عبدالنواب، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر. الطبعة الثانية: بدون تاريخ.
7. لسان العرب: ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: 1995م/ 1416هـ.
8. المنجد: لويس معلوف. المطبعة الكاثوليكية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى (في نصح الجديد): 1960م.
9. وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
10. فقه اللغة: علي عبدالواحد الوافي

11. Linguistics – An Introduction: Jean Aitcheson, Hodder and Stoughton. 4th edition, 1992.

المجلات:

- مجلة الفيصل، العدد، 251، سبتمبر 1997م.
- مجلة الفيصل، العدد: 254، ديسمبر 1997م.
- مجلة الفيصل، العدد 255، يناير 1998م.
- مجلة الضاد، العدد 17، ذوالقعدة - محرم 1426هـ
- مجلة نواء الإسلام، سنة 1994م
- مجلة المنهل، العدد 441
- مجلة "العربي"، العدد 554، يناير 2005 - ذوالقعدة 1425هـ
- المجلة العربية، العدد 244، جمادى الأولى 1418هـ
- نقلاً عن: مجلة الوعي الإسلامي، العدد 366
- مجلة الضاد، العدد 17، ذوالقعدة - محرم 1426هـ.
- مجلة "العربي"، العدد 554، يناير 2005 - ذوالقعدة 1425هـ.
- المجلة العربية، العدد 244، جمادى الأولى 1418هـ، نقلاً عن: الغزو الفكري: د. علي عبدالحميد محمود.
- مجلة الفيصل، العدد، 251، سبتمبر 1997م
- مجلة الفيصل، العدد: 254، ديسمبر 1997م
- مجلة الفيصل، العدد 255، يناير 1998م
- مجلة نواء الإسلام، سنة 1994م

مجلة المنهل، العدد 441
مجلة الوعي الإسلامي، العدد 366
جريدة السفير، المؤرخة: 18/02/2000 ، (من أراشيف الجريدة بوساطة
انترنت)

